شخصية شهر فبراير — ٢

ميجيل دي أونامونو

Miguel de Unamuno

لمؤلفته « مي »

في أبريل ١٩٢٥ بباريس اصدر الكاتب الاسباني المرحوم ڤيثنتي ڤلاسكو ايڤانيث كتابهُ عن الجمهورية الاسبانية المرجوّة الذي احدث زلزالاً في دوائر الادب والسياسة . ختمهُ بهذه الجملة التي تحيل الى ابناء وطنه سيتخذونها للحكم عليه في المستقبل . قال :

« بلا وجل انظر الى المستقبل لانهُ سيقول عني : كان في وسعه ان يظلّ على الهامش ولكنهُ خاض المعركة رغم اقتناعه بأنهُ لن يربح شيئاً بل يخسر كثيراً . انضمّ غير متردد الى ميجيل دي اونامونو وادواردو اورتيجا المجاهدين ببسالة في سبيل الكرامة الاسبانية قبل تحقيقها ودون تبصر في هل كان صحبه في الجهاد قليلين او كثيرين . اعطى البقية الباقية من حياته لاحياء اسبانيا ، لنصرة الجمهورية ، ولم يكن لهُ الاّ مطمع واحد : ان يحتل المكان الاول المتطرف البارز في خط الهجوم حيث يتلقى الضربات الاشدّ هولاً اذ تنقضُّ عليه مُحكَمة قاضية ... » (١)

***

مجرد ذكر اونامونو في مستند خطير كهذا يلخص تاريخ نشاطه في سياسة اسبانيا خلال الاعوام العشرة الاخيرة . وهو تاريخ كنتُ اود تجاوزه لاهتمامي بالشخصيات الادبية والفنية والفكرية وحدها في هذه الدراسات ولاِغفالي الحركات السياسية عموماً ، على اهميتها . غير ان العمل السياسي كان من التمازج بحياة اونامونو الادبية — ومن الانفصال عنها في آنٍ واحد — بحيث يتحتّم تسجيله لتكشف لنا ناحية جدّ جوهرية من تلك الشخصية الفذة

(١) كتاب Vicente Blasco Ibañez "Por España y contra el Rey"

ان هذا الرجل صاحب المكانة الرفيعة جداً في العالم الادبي الدولي ، شغل اعواماً طويلة مديراً لجامعة سلامنكا الشهيرة باسبانيا يدرّس فيها اللغة اليونانية القديمة وعلم المقارنة بين اصول اللغتين اللاتينية والاسبانية ، ويصدر الى جانب ذلك الكتب والابحاث والدراسات والتآليف في شتى الموضوعات. الاّ انهُ ، من عزلته العلمية والادبية ، انبرى يعارض ديكتاتورية بريمو دي ريفيرا وتزعم حركة سياسية عنيفة ضد ذلك النظام مما عرّضهُ لغضب اولي الشأن يومئذٍ فأخرج من وطنه الى المنفى ... المنفى القريب الجميل في جزر كناريا وفي هانداي الفرنسية عند تخوم اسبانيا، يقول خصومهُ السياسيون

وفي المنفى ارتبط بإيڤانييث بروابط الصداقة ، على ما بين المزاجين من شديد تغاير واختلاف . فأونامونو كله روح وعواطف وانفعال نبيل ، في حين ايفانييث كله جسد وحواس وشهوة مضطرمة . اولهما الفكر الفلسفي الادبي الشعري جيماً تصفّى وتكرّر وتلطف في شذوذ منطقي (ان صح الوصف) خاص وعمق بعيد وعلوّ خارق . والآخر هو عاصفة المغامرة في معامع الارتباك والجلبة وفي مشاكل المدنق الذي يتقد جراً ويقطر دماً وسط ملاعب مصارعة الثيران والمشاهد الدموية العنيفة المحببة الى الجماهير . وقد كتب ايفانييث كثيراً — وكان كاتباً قديراً خلاقاً — على ان روايته المعروفة عن مصارعة الثيران وعن حياة أحد المصارعين وغرامياته ، انما هي وصف بليغ لمزاج الكاتب نفسه [1] . بيد ان الفوارق بين مزاجيْ الرجلين اختفت حيناً في النضال السياسي لغاية واحدة

وما انهارت الديكتاتورية تخرج دي ريفيرا يلتمس طريقه الى المنفى حتى انقلب اونامونو يلتمس طريقه من المنفى الى الوطن . فغادر هانداي سيراً على الاقدام مع بعض صحبه السياسيين ورافقه حاكم المدينة مودعاً باسم الحكومة الفرنسية . ومشى في مظاهرة عظيمة لتتلقاه بلاده بحفاوة اعظم وسط الالوية الحمر وصدح الموسيقات ودويّ الخطب والاناشيد الملتهبة وهرج الجموع الزاخرة وتصفيقها . «الكرنڤال الديمقراطي بحذافيره هجّ حول فيلسوف سلامنكا» — على نحو وصف بعض الكتّاب الاوربيين الذين لا يغتفرون لاونامونو آراءه الديمقراطية الجمهورية

***

اعلنت الجمهورية في اسبانيا سنة ١٩٣١ فاذا بأونامونو يصبح عضواً بمجلس النواب ويتولى الاشراف على تنظيم المعارف العمومية . وارتفع صوته عالياً في عديد المسائل الوطنية وبخاصة ضد الحركات الانفصالية في الاقاليم مقاوماً مطالبة قطالونيا بنظام اللامركزية ، للاحتفاظ بمبدإ الوحدة القومية. وشاع في الغرب ان الثورة الاسبانية « فولتيرها » الذي يناضل ويحارب بضربات لفظية متفرقة تتغذى بالتهكم العلمي البريء والنكتة الفلسفية الساذجة في الظاهر وانهُ لا يجامل في نكتته احداً حتى

(١) رواية "Sangre y Arena" وقد ترجمت الى الفرنسية بعنوان « Les Arènes Sanglantes »

ولا المذهب السياسي الذي يؤيده وهو فيه احد الذين يمثلون الشعب . ومن ذلك انه يوم اجتماع الكورتس الجمهوري لأول مرة وصف النواب بأنهم « أطفال بأحذية جديدة »...

اما المقالات التي ما فتىء ينشرها في صحيفة إلسول (الشمس El-Sol) بمدريد ، وقد طالعت بعضها منذ ايام ، فهي تحفة في فن الانشاء وفي تنسيق الافكار المفاجئة ؛ ويصفونها بالشاذة المحيّرة لأنها لا تستقر على اساس من الاسس التي ينعتها اهل السياسة بالوطيدة ، ففيها يبدو اونامونو جمهوريًّا ومونوقراطيًّا ، ديمقراطيًّا وارستقراطيًّا ، متدينًا وعلمانيًّا ، متعبداً وملحداً في آن واحد . ولو اراد هذا الرجل لكيّف بلاده كالعجينة بيده . ولكنه اصدق نزعة فنية وأعرف بالطبيعة الانسانية واوفر حرية روحية من ان يريد . واونامونو الشيخ الذي يناهز الآن السبعين ، طفل في تعرضه لجميع المؤثرات الروحية وكله معارضات ومناقضات ومغالطات في نظر الذين يسجنون الحياة على ورقة في بنود التشريع

أثورة اسبانيا فولتيرها ؟ ان اونامونو اصدق موهبة من فولتير وأبعد حكمة واوجع شعوراً واسنى جوهراً لانه اكثر طهارة واقل خبثاً . لاينقصهُ من فولتير سخريته وتهكمه ودعابته ، ولكن ليس فيه شيء من مراوغته وتلونه ودهائه

انهُ رجل قلق يتعذب . وايمانه الحيّ بالحياة لا يعصمهُ من آلام الارتياب ، وحبه للروح وللجمال لا يحول دون اعترافه بأن المثل العليا تنهار احياناً فاذا بها اجزاء محطمة تتعفر في الثرى عند موطىء التقدم...

بعد قيام النظام السياسي الذي ايدهُ على انقاض النظام الذي دحرهُ وسط مظاهر الحماسة والاكبار من مواطنيه ومن الغرباء المؤيدين ، كتب كلمة ... فقال : « ياجوعي الى الانفراد ! » (Ohe hambre de solitud) . وهذه الكلمة وحدها تصف الرجل كله . اية علاقة يمكن ان توجد بين الروح المعاني الذي يسبق عصره الى الادراك ويتجوهر فيه تكاملُ جميع الازمان وجميع الاجيال ، وبين صخب الفرح في الجماهير ولتغلب نظام سياسي على نظام سياسي ؟ ان صاحب القلنسوة العلمية الكبرى في جامعة سلامنكا ، الاديب السجين في برج من البلور ، الحكيم المنفي عن بهجات الحياة اليومية المادية ، الشاعر الذي يعرف كيف يبدع من العدم عوالم واكواناً — انه لأكثر عند الحياة مطالب وأعسر رغبات وأبعد مقتضيات من ان يتعزّى بالشهرة الرخيصة ويتغذّى بمظاهر النجاح في طغيان العاطفة الوطنية . أهو يغالط ضميره وينكر وجدانه ويسمم فنه باستسلامه لما لا يثق واقتناعه السميم — كما يتهمه منافسوه ؟ ولكن اين هو اقتناعه السميم ؟ أهو يعشق الشذوذ لشذوذ نفسه — كما يتهمونه — لاعباً بالآراء والافكار لعب القطمع الفأر فيقبض عليها بقوة ليفرطها في سهولة ثم يعود يجري وراءها يداعبها وعندما لا ينتظر ذلك احد ، يرمي بها ليأخذ بما يناقضها على خطر مستقيم ؟

يلوح لي من كتابات اونامونو انهُ يعالج شتيت التجارب والاختبارات علَّه يهتدي الى الناحية التي يجد عندها الراحة لنفسه والمنفعة المضمونة للشعوب وللأفراد . هنيئاً للذين يتشبثون بمذهب أو نظام فيعلنونه الأمثل والأصلح لسعادة العالمين ! اما اونامونو فأرحب من ذلك فكراً او اكثر اخلاصاً ، او اقل تفاقاً ، او اصدق تمكناً من صميم الحياة . . . وقلق روحه الرحيبة انما هو قلق الاجيال الجديدة في هذا العصر وفي جميع العصور . انهُ يدرك استحالة التوفيق بين المبادىء المحبوبة الموروثة وبين الوقائع والمقتضيات المفروضة . اكثر من اي أحد سواه هو يدرك ان تطبيق الحوادث على المبادىء غير ميسور وهو مع ذلك لا يدري كيف يتفلَّت من ربقة الحوادث ليتحصن في استقامة المبادىء . والنفاق الذي يسوّي بين جميع الأمور معلناً اشياء بينا هو يحقق أشياء أخرى ليس من شيمته ولا هو يحذق فنهُ وهو ، بلهجة الدعابة ، يعلن احتقاره للآخذين به

***

وهو بعد ذو رأي آخر في الرقي . إنهُ يمقت الكلمات التي يذيعها هذا العصر عنواناً للتقدم ويصارح بمقته دون مواربة أو مداورة . فيقول :

« عليَّ قبل كل شيء ان أعلن اني كلما أمعنت في التفكير اكتشفتُ في نفسي كراهة عميقة لما يعتبرونهُ مبدأً قائداً للروح الأوربي الحديث ورائداً للرشاد العلمي الذي يفرضون اليوم علينا نزعاته وأنظمته . وثمت أمران يذكران كثيراً ، هما العلم والحياة . وعليَّ ان اعترف بأني هذه وذاك إليَّ بغيضان (Antipaticos) . ليس من الضروري تعريف العلم الذي ينشرونهُ ليلبلنا فكرة منطقية واكثر انطباقاً على الكون . عندما كنت من أنصار سبنسر كنت أظن نفسي شغوفاً بالعلم ولكني اكتشفت خطإي ، كخطإ الذين يظنون انهم سعداء وهم ليسوا بسعداء . لم أشغف يوماً بالعلم ، بل كنتُ أبحثُ دائماً عن شيء وراء العلم . وعندما حاولتُ تقطيع خيوط النسبية في العلم لأجتلي حقيقتهُ لم اته إلاَّ إلى منطقة « إني اجهل » . وعندئذٍ أدركتُ ان العلم بعث فيَّ دائماً الملل . قد يسألني سائل بماذا أنت تعارض العلم ؟ وقد أُجيب : أُعارضهُ بالجهل ، ولكن هذا غير مؤكد . وقد أقول مع ملك أورشليم ابن داود ان الذي يجني علماً يجني ألماً وان النهاية الواحدة تنتظر العالم كما تنتظر الجاهل ، ولكن الامر ليس هو هذا . لستُ في حاجةٍ إلى ابتكار لفظٍ لأقول ما هي الحكمة (Sabiduria) ، ولكن هل هي تعارض العلم ؟ إني بدافع الاخلاص لخيالي الشارد تقودني شهوتي الروحية ويستحثني نفوري العميق وانجذابي الصميم ، أجيب : أجل ، الحكمة تعارض العلم . أجل ، العلم ينتزع الحكمة من البشر ليتركهم مادةً اشباحاً متنقلة بالمعارف والمحفوظات ...

« أما الشيء الآخر الذي يذكرونهُ في كل حين فهو الحياة . وهذه يسهل الاهتداء الى ما يعارضها ، وهو الموت . غاية العلم الحياة ، وغاية الحكمة الموت . العلم يقول « لا بدَّ من الحياة » ، فيبحث عن

الوسائل لإطالة الحياة وإنعاشها وتيسيرها وترسيمها وتخفيفها وتلطيفها . والحكمة تقول «لابدّ من الموت» ، فتبحث عن جميع الوسائل التي تهيء للموت كما ينبغي . يقول اسبينوزا « الانسان الحرّ هو الذي أقل ما يفكر في الموت ، وحكمته إنما هي تأمّل لا في الموت ولكن في الحياة » . وأنا أقول ان الحكمة في مثل تلك الحال لا تكون حكمة ، بل هي العلم . ويكون صاحبها الانسان الذي تخلّص من الغم المطلق (suprema angustia) ، من القلق الدائم ، وتحرّر من نظرة أبي الهول ، أي الانسان الذي ليس بانسان وهو المثل الأعلى للأوربي الحديث . . . وها نحن اولاء نبلغ الآن فكرة بغيضة اليّ كفكرة العلم والحياة ، وهي فكرة الحرية . إذ ليس من حرية حقة إلاّ بالموت

«وما هو الغرض من كل ذلك ؟ عن أيّ شيء يبحثون وإلى اي هدف يرمي اولئك المتشبثون بالعلم وبالحياة وبالحرية ؟ فيبديرون ظهورهم للحكمة وللموت مدركين أو غير مدركين ؟ إنهم يبحثون عن السعادة . ذلك الذي تسميه الأوربي الجديد يقبل على العالم باحثاً عن السعادة لنفسه وللآخرين ظنّاً منهُ ان على الانسان ان يسعى ليكون سعيداً . وهذا مبدأ لا أستطيع أن أقرّه . وسأطرح عليكم في هذه الاعترافات بقضية تعسفية لأني لا أملك اثباتها بالمنطق ولانها تفرضها عليّ عاطفة فيّ لا تفكير عقلي . وهذه القضية هي : إما السعادة واما الحب ! فاذا طلبت الواحد فعليك ان تتنازل عن الأخرى . لان الحب يقضي على السعادة والسعادة تقضي على الحب . . . وبيان هذا وتفسيره نجده عند أهل الروحانية منا وعند فلاسفتنا الجديرين بالاعجاب الذين شعروا — ولم يفكروا — بالحب والسعادة فأوجدوا كلمات « الألم اللذيذ » (dolore saporosso) و «أموت لأني لا أموت»[1] وغير ذلك مما ينمّ على عمق هذه العواطف . . . »

***

في كل ما كتبهُ وطالعهُ من موضوعات وأقاصيص وابحاث وروايات ومسرحيات وأشعار ، يتجلى أونامونو ذا عبقرية عالية التحليق متعددة الوجوه متوازنة القوى في شتيت النواحي . إنه بارع مبدع عالماً ومفكراً وناقداً ومدرّساً ومحاضراً ومؤلفاً وأديباً وشاعراً وراوياً . على ان أهم دراماته هي فيدرا Fedra وأحب كتبه الى جماهير المثقفين في العالم كتابه عن « حاسة التفجع في الحياة » (Sentimiento tragico en la Vida) ، وكتاب « الحقائق المتعسفة » الذي اقتطفنا منه نبذة في الصفحات السالفة . أما الكتاب الذي أذاع شهرته منذ سنة ١٩٠٥ فترجم الى اكثر اللغات الحية وفرض أونامونو على عالم الآداب العالمية كشخصية فذة فهو كتابهُ عن « دون كيخوتي وسانتشو »

(١) « Muero porchè no muero » بيت شهير من نشيد دينيّ للقديسة تريزا الاسبانية

(Vida de Don Quijote y Sancho) ومعلوم ان خالق دون كيخوتي وسانتشو هو الاديب الاسباني العظيم سرفانتس Cervantes

وأما كتابه « اسبانيا ضد اوروبا » فهو ذو وطنية بارعة متنطسة منطقية في شذوذها ، حمل فيه على الاساليب الاوروبية الحديثة و« مكننتها » للحياة حتى لتجعلها ماكينة عظيمة تدور بمختلف الادوات والآلات فتقضي بنظامها الآلي على كل ما في الانسان من بداهة ونزوق وخصوبة وشعور. ودافع عن المزاج الاسباني منكراً على الثقافة الاوروبية تسميمه وتشويهه ومسخه لتجعله على صورتها ومثالها ، وطالب للفطرة الاسبانية بالبقاء على ما هي فيه من عيوب ونقائص وجهل حق وعنجهية . فقال فيما قال : « قرأت اخيراً لكاتب مواطن مقالاً حمل فيه على اسبانيا لانها « بلد كئيب » ومضى يشرح . . « جميع منتوجاتنا الادبية والخصوصة صلبة ، جافة ، مزعجة . النبيذ كثيف ، واللحم رديء ، والصحف سخيفة مملة . لست أدري أية مصيبة داهمت أدبنا لتجعله حزيناً كما هو . ومن أكآب الامور في اسبانيا اننا نحن الاسبان لا نستطيع ان نكون أهل زهو ورشاقة . . . »

« هذا ما يقوله بيو باروخا [1]. اما في نظري أنا فأكثر الامور كآبة ان نصبح اهل طيش وزهو ، إذ تفقد عندئذٍ صفة الاسبانية فينا دون ان نصبح حتى اوربيين . وعندئذٍ يتحتم ان نتنازل عن تعزيتنا الوحيدة وعن مجدنا الوحيد المتلخص في كوننا لا نستطيع ان نكون اهل زهو ورشاقة . قد نتمكن عندئذٍ من ان نروي عن ظهر قلب محفوظات جميع الكتب التي ينشرون بها العلم ، غير اننا نرتد الى حالة يستحيل عندها ان نتمكن من الحكمة . عندئذٍ قد يصبح نبيذنا أصفى ، وزيتنا مكرراً ، وعصارنا أجود ولكننا في نفس الوقت نمسي غير جديرين بخلق دون كيخوتي جديد او ايجاد مصور مثل فيلاسكيث وغيرهما من الذين لا يوجدون الا في جو كهذا الجو

« ويختم باروخا قائلاً : « يا للبلد الكئيب الذي يفكرون فيه في كل شيء إلا في الحياة ! » . وأنا أعارضه هاتفاً : « يا للبلاد الاوربية الحديثة التاعسة التي لا يكتب أهلها الا ليفكروا في الحياة ! وحيث الفكرة السائدة عن الحياة تنسي الناس انهم سيفقدون الحياة يوماً ! »

« ان الغرباء لا يدركون منا إلا الشيء الذي لا يجرح مزاجهم ، متفقاً والفكرة التي يكونونها عنا ، وهي دائماً سطحية . ونحن التعساء نصدق هذا الغرور المضلل وننتظر من الخارج تحقيق اولئك الذين لا يدركوننا الا قليلاً ، ولو أدركونا تماماً ما استطاعوا ان يفهمونا . وحيال هذا

---

(١) Pio Baroja كاتب اسباني ومن رجال السياسة

الواقع الذي جهلاً أو عمداً يرمي الى مسخ طبيعتنا وتجريدنا مما يجعلنا نحن كما نحن ، ماذا علينا ان نعمل ؟ . . . . . . « في روح إسبانيا تحيا وتعمل ليس روحنا فقط نحن الذين نحيا اليوم ، بل كذلك وخصوصاً روح جميع أسلافنا . أما روحنا نحن المعاصرين فأقل الاشياء حياةً ، لأنها لا تندمج في وطننا الا بعد ان نكون غادرناه بموتنا الزمني . . .

« . . . وماذا عسى يجدي التفكير على الطريقة الاوربية العصرية بلغة لا هي عصرية ولا هي اوربية ؟ بينما نحن نرغمها على تبيان معنى ما ، تصرُّ هي على تبيان معنى آخر مساوقة طبيعتها

« . . . لاتين ، لاتين ! انهم لا ينفكون يقذفوننا بحكاية الاخاء اللاتيني . ولست أدري ما اذا كنا نحن ام كانوا هم لاتيناً . اما من ناحيتي انا شخصيًّا فاني مقتنع بأن لا شيء لاتيني فيَّ . فاذا كنا همجيين فعلامَ لا نشعر صادقين بأننا كذلك فنعلن عن انفسنا بصفتنا تلك ؟ فاذا اردنا ان نشدو بما يؤلمنا وبما يواسينا شدونا على طريقتنا الهمجية في الفن ؟ ان عقاب الذي يحاول تقليد غيره هو انه يكفّ عن ان يكون هو نفسه دون ان يفلح في ان يكون ذلك الآخر الذي تمثل به ، وينتهي الى ان يكون لا شيء ؟ . . . » ويقيني ان جعل اسبانيا اوربية لن يبتدىء الا عند ما نفرض نحن الاسبان انفسنا على النظام الروحي في اوربا فندمج فيه ما هو جوهري عندنا تبادلاً لما هو جوهري فيه ، اي عند ما نحاول جعل اوربا اسبانية . . . »

***

نبرات بديعة ، أليس كذلك ؟ يلهبني منها التلظي والأنفة والصدق وخلوها من كل انتحال وكل رخاوة وكل تمثّل . هي نبرات اونامونو حقّاً . واونامونو الذي تلخصت في فطرته عناصر جميع الشعوب التي اجتاحت اسبانيا منذ بدء التاريخ — من الفينيقيين الى اليونان الى المكدونيين الى اللاتين الى القوط الى الفندال الى العرب الى الفرنسيس والانجليز وما يتخلل هؤلاء من شتيت العناصر — اونامونو اغنى من ان يكون ربيب عنصر واحد ، كائناً غنى ذلك العنصر ما كان

شقيق شكسبير في تفجع « هملت » وشقيق جوته في تفطر « فاوست » ، هو ابن اسخيلوس في صلب « پروميثيس » على جبل التمرُّد والنكال . بيد ان اونامونو هو من كل اولئك المؤلف والشخصية التي يخلقها المؤلف في آنٍ واحد . . . .